
3
قصص
المبشرون
بالجنة
رجل تستحى
منه الملائكة
سلوى العنانى
دار اللطائف

رجل تستحى منه الملائكة

(عثمانُ بنُ عفان)

لاشك أن عينى (أبى بكر) كانت تغرورْقانِ بالدمعِ لحظة وضع يده فى يمين رسول الله معلنا إسلامَه وإيمانـه .. ولابـد أن قلبه كان ينتفض بين ضلوعه لحظـة عانقـه النبـى ودعـا له ..

ولابد أن عقل أبى بكر كان يعمل فى سرعَةٍ فائقةٍ ساعةَ غادر بيتَ النبى بعد أن شهد (أن لا إله إلا الله وأن محمـدا رسول الله) فقد كان يعرف أن مهمتـه لم تنتـه عند هـذا .. لكنها بدأت .

نعم .. إن مسئوليةً كبيرةً وقعـت الآن علـى عـاتق (أبـى بكر) فقد أصبح شريكا فى مهمةِ نشر الدعوةِ .

لابد أن أبـا بكـر انفـرد بنفسـه سـاعةً أو بعـض سـاعةٍ يستعرض أسماء هذه المجموعـةِ مـن أصدقائـه .. كـان هـؤلاء الأصدقاءُ من الأشراف والأثرياء والوجهاء وصفـوةِ المجتمـع

القرشىّ .. ولم يتردد (أبو بكر) كثيرًا واتجه إليهم ..

وكان كلما جلس إلى أحدهم وحدثه عن محمـد رأى منه قبولاً وموافقةً .. فهم جميعا يعرفون من هو (محمد بـن عبد الله ابن عبد المطلب) يعرفون أمانته وصدقه ونقاءه وطُهره .

وإلى بيت النبى توجه هؤلاء واحدًا بعد الآخر ... فمـن هم هؤلاء الصفوة ؟ .

إنهم (عبدُ الرحمن بن عوف) و (طلحـةُ بـن عبيـد الله) و(عثمانُ بن عفان) و (الزبير بن العوام) و (أبو عبيدَةُ بن الجراح) .. ويسجل التاريخ هذه الأسماءَ الخمسـة كـأول مـن أسلم من الرجال بعد أبى بكر بن قحافة (الصدّيق) .

تقدم عثمان بن عفان من النبى ونطق بين يديه بالشهادةِ وعاهده على المؤازرة والتأييدِ .

لكن كيف يُقْدِمُ رجـل مثـل (عثمـان) علـى هـذا وهـو التاجر الثرى الواسع الثراء الذى اعتادَ رغدَ العيشِ ولـينَ الفراشِ وجيّد الطعامِ .. كيف يقدم على أمر يعلم أنه يؤثّر على تجارته وثروته ، كما يعلم كيـف سيكون صداه بـين

أشرافِ قريشٍ وزعمائها ؟ ..

لقد آمن الرجلُ ..

نعم .. آمن عثمان بأن ما جاء به (محمد) هو الحقُّ والخيرُ واقتنع بأن ما يؤمن به أهل فى قريش وغيرها إنما هو الباطلُ والزيفُ .. لقد ملأ النورُ قلبه وأضاء له طريقَ الحقِّ ..

فهل تصمتُ قريشٌ على ما فعل (عثمان) ؟ هل تتركه يصبأ[1] ويترك دين آبائه وأجداده ؟

ها هو ذا (الحكم بن أبى العاص) يوثق ابن أخيه (عثمان ابن عفان) بالسلاسل ويصرخ فى وجهه ..

ـ أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ؟ والله لا أحل وثاقك أبدًا حتى تدعَ ما أنت عليه من هذا الدينِ .

فيجيبه (عثمان) وقد منحه إيمانه قوةً تفوق أى قوةٍ يهدده بها عمُّه :

ـ والله لا أدَعُ دينَ الله أبدًا .. ولا أفارقه .

---

(1) صبا : أى ترك عبادة الأصنام واعتنق دينا آخر .

ويحاصره الناسُ ويقاطعون تجارته آملين أن يرده هذا عن الدين الذى آمن به .. لكن هيهات .. فقد كان تمسكه بدينه يفوق حرصَه على حياته .

تبارى كفارُ قريشٍ فى تعذيبِ المسلمين الأوائل .. فرأى رسول الله أن يهاجر بعضُ هؤلاءِ إلى الحبشة فرارًا بدينهم .. وكان (عثمان بن عفان) وزوجته السيدة (رقية) ابنة النبى محمد من بين من هاجروا فى هذه الهجرةِ الأولى .

لم يكن سهلا على نفسِ رسولِ الله أن يفارقه أحبابُه من المسلمين الأوائل الذين أيدوه وآزروه منذ اللحظةِ الأولى .

فوقف يودع ابنته (رقية) وزوجَها (عثمان) وهو يقول :

"إنهما لأول من هاجر إلى الله بعد نبى الله لوط" ..

ولما استقرت الأحوالُ فى مكةَ .. عاد إليها (عثمان) وزوجتُه وباقى المسلمين ثم هاجروا بعد ذلك إلى (يثرب) .

ها هى ذى حياة المسلمين قد استقرت فى المدينة المنورة .. وها هو ذا النبى يضع لهذا المجتمع أسسًا وقواعدَ تضمن له

أمنه واستقراره فيؤاخى بين المهاجرين والأنصار .. لكن كان لابد من وجود مصدرٍ دائم وآمن من المياه العذبة ..

وكان سكان (يثرب) يشربون من بئر تسمى (بئر رومة) يمتلكها رجل يهودى .. ويبيع ماءها للناس .

وتمنى النبى لو اشتراها أحد الأثرياء ووهبها للمسلمين ..

ويبادر (عثمان بن عفان) ويساوم اليهودى الذى لم يوافق إلا على بيع نصفها بثمن باهظ ..

ويهب (ابن عفان) ماء البئر للناس دون مقابل فى الأيام التى اتفق عليها مع اليهودى .. فكان المسلمون يشربون ويحتفظون بما يحتاجون إليه فى اليوم التالى .. فجاء اليهودى إلى (عثمان) وقد رأى أنه لا يبيع ماء فى الأيام المخصصة له .. وقال لعثمان :

ـ أفسدت علىَّ البئر .. اشترِ النصفَ الآخر ..

ويشترى (عثمان) باقى البئر ويتركها سبيلا للمسلمين .. كان من الضرورى أن يبنى المسلمون لهم مسجدًا بعد أن

استقر بهم المقام فى (المدينة) .. ويتعاون الصحابةُ ومعهم النبيُّ الكريمُ ويبنون مسجدا كان يكفيهم وقتها .. ويدخل الناسُ فى دين الله أفواجا .. ويضيق بهم المسجدُ .. ويتمنى رسولُ الله أن يضم أرضا مجاورة فيضيفها إلى مساحةِ المسجدِ ..

ويسارع (عثمان بن عفان) فيدفع ثمنَ الأرض ويهبها للمسجدِ .

فتح الله (مكةَ) أمام المسلمين ـ فتحا مبينا ـ وتوالى إسلام القبائل فى شبهِ الجزيرةِ العربيةِ ، ودانت كلها للدين الجديد ، وآمنت بمحمد نبيا حتى وصل نفوذ الإسلام إلى حدود دولة الرومِ فى الشام .

وتصل الأنباء يوما إلى مدينةِ رسول الله أن جيوش الرومِ تحتشد لغزو حدود العرب الشمالية ..

كان هذا فى صيف العام التاسع الهجرى ..

وكان عاما جافا جدبا .. لم تَجُدْ فيه السماء بمطرٍ أو غيثٍ ..

وكان السفر إلى بلاد الشام طويلا ويحتاج إلى مؤن وعتاد .. وهبَّ المسلمون يتبرعون .. كل بما يملك .. المرأة بحليِّها والرجل بدابته وسلاحه .. وذوو المال بمالهم .

لكن .. هل يكفى هذا لإعداد جيشٍ يقابل جحافل الروم ؟؟

لقد خرج فقراء المسلمين يريدون القتالَ .. إما النصر وإما الشهادة . لكن كيف ؟

وأطلق النبى عليه السلامُ صيحته :

ـ "من يجهزُ هؤلاءِ ويغفرُ الله له ؟ " ..

ويسارع (عثمان بن عفان) ويلبى نداءَ الرسولِ ويجهز الجيشَ كله .. (تسعمائة وأربعين بعيرا ، وستين فرسًا أتم بها الألف) .

ثم جاء عثمان إلى النبى بعشرة آلاف دينار بجعل الرسولُ ﷺ يقلبها بيده ويقول :

ـ "غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت ، وما

هو كائن إلى يومِ القيامةِ" .

كانت خلافةُ (أبى بكر الصديق) .

وأصاب المدينةَ قحطٌ وجفافٌ ..

وها هى ذى قافلة (عثمان بن عفان) قد عادت من الشام تحمل القمحَ والحبوبَ والزيتَ والثيابَ .

ويُهرعُ التجارُ إلى (عثمان) يساومونه على شراءِ قافلته .

سأل عثمان : كم تربحوننى ؟

قالوا : الدرهم درهمين .

قال : أعطيت زيادة .

قالوا : أربعة دراهم .

قال : أعطيت أكثر .

قالوا : نربحك خمسة .

قال : أعطيت أكثر .

وتعجب التجارُ .. فليس فى المدينةِ غيرهُم .. فمن ذا

الذى أعطاك أكثر ؟

قال (عثمان بنُ عفان) :

"إن الله أعطانى بكل درهم عشرةً .. فهل تزيدون ؟"

وأعلن على مسمع ومرأى من الناس :

- إنى أشهد الله أنى جعلت ما حملتْ هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين ..

هذا هو (عثمان بن عفان) رجل الجود والعطاء غير المحدود وفوق هذا الجودِ والسخاء كان (عثمان) مثالا للحياءِ ..

وكثيرا ما أشاد النبىُّ عليه السلام بحياء (عثمان) وعنه عليه السلام أنه قال :

"أرحم أمتى أبو بكر ... وأشدها فى دين الله عمر ... وأشدها حياء عثمان" ..

يُروى عن (عائشة) أمِّ المؤمنين أنها قالت :

استأذن (أبو بكر) يوما فى الدخول على النبى وكان

مضطجعا فأذن له وتحدث مع النبى ثم انصرف .

ثم استأذن (عمر) .. ومكث وقتا مع النبى ثم مضى .

ثم استأذن (عثمان) .. فتهيأ الرسولُ لمقدمه بعد أن كان مضطجعا وأسبل جلبابه فوقَ ساقيه قبل أن يدخل عليه (عثمان) .

ولما سألته السيدةُ (عائشة) : يا رسول الله .. لم أرك تهيأت (لأبى بكر) أو (لعمر) كما تهيأت (لعثمان) ؟!

فأجابها الرسول :

"إن عثمان رجل حيى ، ولو أذنت له وأنا مضطجع لاستحيا أن يدخل ولرجع دون أن أقضى له الحاجةَ التى جاء من أجلها .

يا عائشةُ .. ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكةُ ؟"

بعد دخول (عثمان) بن عفان فى دين الإسلام زوَّجه النبى عليه السلام ابنته (رقيَّة) .. فلمَّا توفاها الله زوجه من ابنته الثانية (أم كلثوم) ... وماتت أم كلثوم .. وتجاوز النبى

أحزانه بعد فقد ابنتيه وتوجه إلى (عثمان) بالقول ..

"لو أن لنا ثالثة لزوجناك إياها" ..

لهذا سُمى (عثمان بن عفان) (بذى النورين) حيث اقترن باثنتين من بنات النبى عليه السلام.

مات أميرُ المؤمنين (عمرُ بن الخطاب) متأثرا بجراحه بعد أن تلقى الطعنات الغادرةَ من المجوسى (أبو لؤلؤة) .. واجتمع مجلس الشورى المكون من الصحابة الستة الذين مات النبىُّ عليه السلام وهو راض عنهم ليختاروا من بينهم خليفة للمسلمين.

ويقع الاختيار على ذى النورين (عثمان بن عفان) ليتحمل مسئولية الخلافةِ وقد ناهز عمرُه سبعين عاما.

فكيف استقبلها شيخُ الجود والحياء ؟.

قال فى خطبةِ البيعة:

"إن الدنيا طويت على الغرور

فلا تغرنكم الحياةُ الدنيا .. ولا يغرنكم بالله الغَرُور"

فهل يخشى الغُرورَ رجلٌ فى مثل أخلاقِ (عثمان) ؟

وتتحرك الفتنُ فى طول البلاد وعرضها .. فقد ظن المتربصون أن وفاة (عمر بن الخطاب) تعنى ضعف الدولة وتفكك أوصالها كما رأوا فى الخليفة الجديد (عثمان بن عفان) رجلا جاوز السبعين معروفا عنه الحياءُ ورقة الخصالِ ، فازدادت أطماعُهم .

لكن (ابن عفان) أثبت لهؤلاء أن دولةَ الإسلام مازالت على عهدها من القوةِ والفتوةِ .. فأرسل حملاته إلى أذربيجان وأرمينية والإسكندرية وفلسطين وغيرها ، ولم تقتصر مهمةُ هذه الحملات على إطفاء نار الفتنة والقضاء على الحركات الانفصاليةِ فقط .. بل مضت أغلبُها تؤمّن حدودَ الدولَةِ ـ بل الإمبراطوريَة الإسلامية ـ وتُوغل فى توسعاتها لتمنع تكرار مثل هذه المناوشات فى المستقبل .

ولمجابَهة الأسطولِ البحرى للرومان ..أمر الخليفةُ (عثمان بن عفان) بإعداد أَسطول بحرى لأول مرة .. استطاع أن يحقق انتصارًا باهرًا فى موقعةِ (ذات الصوارى) ..

وهكذا شهد عصرُ (عثمان) مولدَ البحريةِ الإسلاميةِ ..

هل نذكر اليومَ صاحب الفضلِ فى هذه الوحدةِ التى لا تشوبها شائبةٌ فى النص القرآنى على امتداد العالم الإسلامى..

هل يذكر أحد من الذى جمع نُسَخَ المصحف الشريف المختلفةَ ثم أمر بكتابة مصحفٍ واحدٍ صحيح يقوم بمراجعته وتحقيقه مجموعة من الصحابةِ حفظة كتاب الله ؟ .. وهل نذكر صاحب الأمر بكتابة نسخ متعددة تطابق هذه النسخة الموثقة لتوزيعها على كل أجزاء الدولةِ الإسلاميةِ فيتوحد فيما بينها النص القرآنىُّ كتابةً ونطقا ؟

إنه أميرُ المؤمنين (عثمان بنُ عفان) الذى أقلقه ما علم من اختلاف بين الشعوب الإسلاميةِ فى قراءتها للقرآن الكريم .

وكان هذا الإنجازُ الخالدُ الذى تنطق به كل نسخةٍ نقرأ فيها اليومَ من المصحفِ الشريف والذى عرف (بمصحف عثمان) .

وتمضى سنوات حكم (ذى النورين) .. هذا الصحابى

الجليل والخليفة العظيم لتزيد على عشر سنوات تسجل له إنجازا بعد آخر وانتصارًا تلو آخر ..

إلا أن الفتن والدسائس كانت قد أخذت مكانها فى هذه الدولةِ الواسعةِ .. وطرحتٍ على ساحة الحكم مجموعةً من الخلافات التى انتهت بأن حاصر بعضُ الغوغاءِ بيتَ (عثمان) لعدة أيامٍ .. إلى أن قتلوه ..

وصعدت روحُ الصحابى الجليل .. رمز الجود والعطاءِ والبذلِ والحياءِ .. صعدت روحه إلى بارئها .. ليسكن (عثمان ابن عفان) جنةَ الخلدِ مع الصديقين والشهداء فقد كان رضى الله عنه من{وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا} [المائدة : 93] صدق الله العظيم.